

قصص الأنبياء

قال اﷲ تعالى في كتابه العزيز : بسم اﷲ الرحمن الرحيم : { كهيعص * ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربه نداء خفيا * قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعا لك رب شقيا * وإني خفت الموالى من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا * يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا * يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا * قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا * قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا * قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا * فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا * يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا * وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا * وبراً بوالديه ولم يكن جبارا عصيا * وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا . }

وقال تعالى : { وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند اﷲ إن اﷲ يرزق من يشاء بغير حساب * هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن اﷲ يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من اﷲ وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين * قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك اﷲ يفعل ما يشاء * قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار } .

وقال تعالى في سورة الأنبياء : { وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين * فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين } .

وقال تعالى : { وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين } .

قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في كتابه التاريخ المشهور الحافل : زكريا بن برخيا ويقال زكريا بن دان ويقال زكريا بن لدن بن مسلم بن صدوق بن حشبان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة بن برخيا بن بلعطة بن ناحور بن شلوم بن بهفاشاط بن اينامن ابن رجيعام بن سليمان بن داود أبو يحيى النبي عليه السلام من نبي إسرائيل .

دخل البثنة من أعمال دمشق في طلب ابنه يحيى وقيل إنه كان بدمشق حين قتل ابنه يحيى واﷲ أعلم وقد قيل غير ذلك في نسبه ويقال فيه زكريا بالمد والقصر ويقال زكري أيضا .

والمقصود أن اﻻ تعالى أمر رسوله (A) أن يقص على الناس خبر زكريا عليه السلام وما كان من أمره حين وهبه اﻻ ولدا على الكبر وكانت امرأته مع ذلك عاقرا في حال شبيبته وقد أسنت أيضا حتى لا ييأس أحد من فضل اﻻ ورحمته ولا يقنط من فضله تعالى : { ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربه نداء خفيا } قال قتادة عند تفسيرها : إن اﻻ يعلم القلب النقي ويسمع الصوت الخفي وقال بعض السلف : قام من الليل فنادى ربه مناداة أسرها عمن كان حاضرا عنده مخافته فقال : يا رب يا رب يا رب فقال اﻻ : لبيك لبيك لبيك { قال رب إني وهن العظم مني } أي ضعف وخار من الكبر { واشتعل الرأس شيبا } استعارة من اشتعال النار في الحطب أي غلب على سواد الشعر شيبه كما قال ابن دريد في مقصورته : .

(أما ترى رأسي حاكى لونه ... طرة صبح تحت أذيال الدجا .
واشتعل المبيض في مسوده مثل اشتعال النار في جمر الغضا .
وآض عود اللهم يبسا ذاويا من بعد ما قد كان مجاج الثرى) .
يذكر أن الضعف قد استحوذ عليه باطنا وظاهرا وهكذا قال زكريا عليه السلام : { إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا } .

وقوله : { ولم أكن بدعائك رب شقيا } أي ما عودتني فيما أسألك إلا الإجابة وكان الباعث له على هذه المسألة أنه لما كفل مريم بنت عمران بن ماثان وكانت كلما دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة في غير إبانها ولا في أوانها وهذه من كرامات الأولياء فعلم أن الرزاق للشيء في غير أوانه قادر على أن يرزقه ولدا وإن كان قد طعن في سنه { هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء } وقوله : { وإني خفت الموالى من ورائي وكانت امرأتي عاقرا } قيل المراد بالموالى العصبه وكأنه خاف من تصرفهم بعده في بني إسرائيل بما لا يوافق شرع اﻻ وطاعته فسأل وجود ولد من صلبه يكون برا تقيا مرضيا ولهذا قال : { فهب لي من لدنك } أي من عندك بحولك وقوتك { وليا * يرثني } أي في النبوة والحكم في بني إسرائيل { ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضا } يعني كما كان آباؤه وأسلافه من ذرية يعقوب أنبياء فاجعله مثلهم في الكرامة التي أكرمتمهم بها من النبوة والوحي وليس المراد هاهنا وراثة المال كما زعم ذلك من زعمه من الشيعة ووافقهم ابن جرير هاهنا وحكاه عن أبي صالح من السلف لوجوه : .

أحدها : ما قدمناه عند قوله تعالى : { وورث سليمان داود } أي في النبوة والملك لما ذكرنا في الحديث المتفق عليه بين علماء الموري في الصحاح والمسانيد والسنن وغيرها من طرق عن جماعة من الصحابة أن رسول اﻻ (A) قال : [لا نورث ما تركنا فهو صدقة] فهذا نص على أن رسول اﻻ (A) لا يورث ولهذا منع الصديق أن يصرف ما كان يختص به في حياته إلى أحد من ورثته الذين لولا هذا النص لصرف إليهم وهم ابنته فاطمة وأزواجه التسع وعمه

العباس B هم تواحتج عليهم الصديق في منعه إياهم بهذا الحديث وقد وافقه على روايته عن رسول الله (A) عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وأبو هريرة وآخرون B هم .
والثاني : أن الترمذي رواه بلفظ يعم سائر الأنبياء : [نحن معاشر الأنبياء لا نورث] وصححه .

الثالث : أن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكنزوا لها أو يلتفتوا إليها أو يهتمهم أمرها حتى يسألوا الأولاد ليحوزوها بعدهم فإن من لا يصل إلى قريب من منازلهم في الزهادة لا يهتم بهذا المقدار أن يسأل ولدا يكون وارثا له فيها .
الرابع : أن زكريا عليه السلام كان نجارا يعمل بيده ويأكل من كسبها كما كان داود عليه السلام يأكل من كسب يده والغالب ولا سيما من مثل حال الأنبياء أنه لا يجهد نفسه في العمل إجهادا يستفضل منه مالا يكون ذخيرة له ولمن يخلفه من بعده وهذا أمر بين واضح لكل من تأمله وتدبره وتفهمه إن شاء الله .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد يعني ابن هارون أنبأنا حماد بن سلمة ن عن ثابت عن أبي رافع عن أبي هريرة أن رسول الله (A) قال : [كان زكريا نجارا] وهكذا رواه مسلم و ابن ماجه من غير وجه عن حماد بن سلمة به .

وقوله : { يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا } وهذا مفسر بقوله : { فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحورا ونبيا من الصالحين } .

فلما بشر بالولد وتحقق البشارة شرع يستعلم على وجه التعجب وجود الولد له والحالة هذه { قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا } أي كيف يوجد ولد من شيخ كبير قيل كان عمره إذ ذاك سبعا وسبعين سنة والأشبه والله أعلم أنه كان أسد من ذلك { وكانت امرأتي عاقرا } يعني وقد كانت امرأتي في حال شبيبته عاقرا لا تلد والله أعلم .

كما قال الخليل : { أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون } وقالت سارة : { يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد } .

وهكذا أجيب زكريا عليه السلام قال له الملك الذي يوحى إليه بأمر ربه : { كذلك قال ربك هو علي هين } أي هذا سهل يسير عليه { وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا } أي قدرته أوجدتك بعد أن لم تكن شيئا مذكورا أفلا يوجد منك ولد وإن كنت شيئا ؟ ! .

وقال تعالى : { فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في

الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين { ومعنى إصلاح زوجته أنها كانت لا تحيض فحاضت وقيل كان في لسانها شيء أي بذاءة .

{ قال رب اجعل لي آية } أي علامة على وقت تعلق مني المرأة بهذا الولد المبشر به { قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا } يقول علامة ذلك أن يعتريك سكت لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزا وأنت في ذلك سوى الخلق صحيح المزاج معتدل البنية وأمر بكثرة الذكر في هذه الحال بالقلب واستحضار ذلك بفؤاده بالعشي والإبكار فلما بشر بهذه البشارة خرج مسرورا بها على قومه من محرابه { فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا } والوحي هاهنا هو الأمر الخفي إما بكتابة كما قاله مجاهد والسدي أو إشارة كما قاله مجاهد أيضا ووهب وقتادة قال مجاهد وعكرمة ووهب والسدي وقتادة : اعتقل لسانه من غير مرض وقال ابن زيد : كان يقرأ ويسبح ولكن لا يستطيع كلام أحد .

وقوله تعالى : { يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا } يخبر تعالى عن وجود الولد وفق البشارة الإلهية لأبيه زكريا عليه السلام وأن الله علمه الكتاب والحكمة وهو صغير في حال صباه .

قال عبد الله بن المبارك : قال معمر : قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب فقال : ما للعب خلقنا قال : وذلك قوله : { وآتيناه الحكم صبيا } .

وأما قوله : { وحنانا من لدنا } فروى ابن جرير عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : لا أدري ما الحنان وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك : { وحنانا من لدنا } أي رحمة من عندنا رحمتنا بها زكريا فوهبنا له هذا الولد وعن عكرمة : { وحنانا } أي محبة عليه ويحتمل أن يكون ذلكصفة لتحنن يحيى على الناس ولا سيما على أبويه وهو محبتهم والشفقة عليهما وبره بهما .

وأما الزكاة فهو طهارة الخلق وسلامته من النقائص والرذائل والتقوى طاعة الله بامثال أوامره وترك زواجه .

ثم ذكر بره بوالديه وطاعته لهما أمرا ونهيا وترك عقوقهما قولا وفعلًا فقال : { وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً } ثم قال { وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً } هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان فإنه ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر فيفقد الأول بعد ما كان ألفه وعرفه ويصير إلى الآخر ولا يدري ما بين يديه ولهذا يستهل صارخا إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لينها وضمها وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمها ! .

وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينهما وبين دار القرار وصار بعد الدور والصور إلى عرصة الأموات سكان القبور وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث

والنشور فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور وما بين جبر وكسير وفريق في الجنة وفريق في السعير ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول : .

(ولدتك أمك باكيا مستصرخا ... والناس حولك يضحكون سرورا .

فاحرص لنفسك أن تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكا مسرورا) .

ولما كانت هذه الواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم سلم الله على يحيى في كل مواطن منها فقال : { وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا } .

وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة أن الحسن قال : إن يحيى وعيسى التقيا فقال له عيسى : استغفر لي أنت خير مني فقال له الآخر : استغفر لي أنت خير مني فقال له عيسى : أنت خير مني سلمت على نفسك وسلم الله عليك فعرفوا فضلهما .

وأما قوله في الآية الأخرى : { وسيدا وحورا ونبيا من الصالحين } فقليل المراد بالحضور الذي لا يأتي النساء وقيل غير ذلك وهو أشبه لقوله : { هب لي من لدنك ذرية طيبة } .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا عفان : حدثنا حماد أنبأنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله (A) قال : [ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة ليس يحيى بن زكريا وما ينبغي لأحد يقول أنا خير من يونس بن متى] .

علي بن زيد بن جدعان تكلم فيه غير واحد من الأئمة وهو منكر الحديث وقد رواه ابن خزيمة والدارقطني من طريق أبي عاصم العباداني عن علي بن زيد بن جدعان به مطولا ثم قال ابن خزيمة : وليس على شرطنا .

وقال ابن وهب : حدثني بن لهيعة عن عقيل عن ابن شهاب قال : خرج رسول الله (A) على أصحابه يوما وهم يتذاكرون فضل الأنبياء فقال قائل : موسى كريم الله وقال قائل : عيسى روح الله وكلمته وقال قائل : إبراهيم خليل الله وهم يذكرون ذلك فقال : [أين الشهيد بن الشهيد يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذنب] قال ابن وهب : يريد يحيى بن زكريا .

وقد رواه محمد بن إسحاق وهو مدلس عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب حدثني ابن العاص أنه سمع رسول الله (A) يقول : [كل ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكريا] .

فهذا من رواية ابن إسحاق وهو من المدلسين وقد عنعن هاهنا .

ثم قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن سعيد بن المسيب مرسل .

ثم رأيت ابن عساكر ساقه من طريق أبي أسامة عن يحيى بن سعيد الأنصاري ثم رواه ابن عساكر من طريق إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني خطيب دمشق : حدثنا محمد بن الأصبهاني حدثنا أبو

خالد الأحمر عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن عمرو قال : ما أحد إلا

يلقى الله بذنوب إلا يحيى بن زكريا ثم تلا { وسيدا وحورا } ثم رفع شيئا من الأرض فقال : ما

كان معه إلا مثل هذا ثم ذبح ذبحا ! .

وهذا موقوف من هذا الطريق وكونه موقوفاً أصبح من رفعه وإِ أعلم وأورده ابن عساكر من طرق عن معمر : من ذلك ما أورده من حديث إسحاق بن بشر وهو ضعيف عن عثمان بن ساج عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن معاذ عن النبي (A) بنحوه .

وروى عن طريق أبي داود الطيالسي وغيره عن الحكم بن عبد الرحمن بن أبي نعيم عن أبيه عن أبي سعيد قال : قال رسول الله (A) : [الحسن والحسين سيذا شباب أهل الجنة إلا ابني الخالة يحيى وعيسى عليهما السلام] .

وقال أبو نعيم الحافظ الأصبهاني : حدثنا إسحاق بن أحمد حدثنا إبراهيم بن يوسف حدثنا أحمد بن أبي الحواري سمعت أبا سليمان يقول : خرج عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا يتماشيان فصدم يحيى امرأة فقال له عيسى : يا ابن خالة لقد أصبت اليوم خطيئة ما أظن أنه يغفر لك أبداً قال : وما هي يا ابن خالة ؟ قال : امرأة صدمتها قال : وإِ ما شعرت بها قال : سبحان الله بدئك معي فأين روحك ؟ قال : معلق بالعرش ولو أن قلبي اطمأن إلى جبريل لظننت أنني ما عرفت الله طريقة عين فيه غرابة وهو من الإسرائيليات .

وقال إسرائيل عن أبي حصين عن خيثمة قال : كان عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابني خالة وكان عيسى يلبس الصوف وكان يحيى يلبس الوبر ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ولا عبد ولا أمة ولا مأوى يأويان إليه أين ما جنهما الليل أويا فلما أرادا أن يتفرقا قال يحيى : أوصني قال : لا تغضب قال : لا أستطيع إلا أن أغضب قال : لا تقتن ما لا قال : أما هذه فعسى . وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منبه : هل مات زكريا عليه السلام موتاً أو قتل قتلاً ؟ على روايتين فروى عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه أنه قال : هرب من قومه فدخل شجرة فجاءوا فوضعوا المنشار عليهما فلما وصل المنشار إلى أضلاعه أن فأوحى الله إليه : لئن لم يسكن ابنك لأقلبن الأرض ومن عليها فسكن أُنينه حتى قطع باثنتين . وقد روى هذا في حديث مرفوع سنورده بعد إن شاء الله .

وروى إسحاق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب أنه قال : الذي انصدعت له الشجرة هو شعياً فأما زكريا فمات موتاً فإِ أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان أنبأنا أبو خلف موسى بن خلف - وكان يعد من البدلاء - حدثنا يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلام عن جده ممطور عن الحارث الأشعري أن النبي (A) قال : إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن فإِما أن تبلغهن وإِما أن تبلغهن فقال : يا أخي إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخف بي قال : فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركن أن تعملوا بهن

وأولهن أن تعبدوا ا [لا تشركوا به شيئاً فإن مثل ذلك مثل من اتشركى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلبته إلى غير سيده فأيكمل يسره أن يكون عبده كذلك وإن ا خلقكم ورزقكم فاعدوه ولا تشركوا به شيئاً .

آمركم بالصلاة فإن ا ينصب وجه قبل عبده مالم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا .
وآمركم بالصيام فإن ا مثل ذلك كمثله رجل معه صرة من مسك في عصاة كلهم يجد ريح المسك وإن خلوف فم الصائم أطيب عند ا من ريح المسك .
وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثله رجل أسره العدو فشده يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال : هل لكم أن أفتدي نفسي منكم فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه .

وآمركم بذكر ا D كثيراً فإن مثل ذلك كمثله رجل طلبه العدو سراعاً في أثره فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه وإن العبد أحسن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر ا D .
قال : وقال رسول ا (A) : [وأنا آمركم بخمس ا أمرني بهن : بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل ا فإن من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلق ربق الإسلام من عنقه إلا أن يرجع ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من حنا جهنم قال : يا رسول ا وإن صام وصلى ؟ قال : " وإن صام بدعوى الجاهلية وزعم أنه مسلم ادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم ا D المسلمين المؤمنين عباد ا D] .

وهكذا رواه أبو يعلى عنهدبة بن خالد عن أبان بن زيد عن يحيى بن أبي كثير به وكذلك رواه الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي وموسى بن إسماعيل وكلاهما عن أبان بن يزيد العطار به ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار عن محمد بن شعيب بن سابور عن معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الأشعري به ورواه الحاكم من طريق مروان بن محمد الطاطري عن معاوية بن سلام عن أخيه به ثم قال : تفرد به مروان الطاطري عن معاوية بن سلام .

قلت : وليس كما قال ورواه الطبراني عن محمد بن عبدة عن أبي توبة الربيع بن نافع عن معاوية بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الأشعري فذكر نحوه فسقط ذكر زيد بن سلام عن أبي سلام عن الحارث الأشعري فذكر نحوه هذه الرواية .

ثم روى الحافظ ابن عساكر من طريق عبد ا [بن أبي جعفر الرازي عن أبيه عن الربيع بن أنس قال : ذكر لنا عن أصحاب رسول ا (A) فيم سمعوا من علماء بني إسرائيل أن يحيى بن زكريا أرسل بخمس كلمات وذكر نحون ما تقدم .

وقد ذكروا أن يحيى عليه السلام كان كثير الانفراد من الناس إنما كان يأنس إلى البراري ويأكل من ورق الأشجار ويرد ماء الأنهار ويتغذى بالجراد في بعض الأحيان ويقول : من أنعم

منك يا يحيى ؟ .

وروى ابن عساكر أن أبويه خرجا في طلبه فوجداه عند بحيرة الأردن فلما اجتمعا به أبكاهما بكاء شديدا لما هو فيه من العبادة والخوف من الله .

وقال ابن وهب عن مالك عن حميد بن قيس عن مجاهد قال كان طعام يحيى بن زكريا العشب وإنه كان ليبيكي من خشية الله حتى لو كان القار على عينيه لخرقه .

وقال محمد بن يحيى الذهلي : حدثنا الليث حدثني عقيل عن ابن شهاب قال : جلست يوما إلى أبي إدريس الخولاني وهو يقص فقال : ألا أخبركم بمن كان أطيّب الناس طعاما ؟ فلما رأى الناس قد نظروا إليه قال : إن يحيى بن زكريا كان أطيّب الناس طعاما ؟ إنما كان يأكل مع الوحش كراهة أن يخالط الناس في معاشتهم .

وقال ابن المبارك عن وهيب بن الورد قال : فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام فخرج يلتمسه في البرية فإذا هو قد احتفر قبرا وأقام فيه يبكي على نفسه فقال : يا بني أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت في قبر احتفرته قائم تبكي فيه ؟ فقال : يا أبت أأست أنت أخبرتني أن بيت الجنة والنار مفازة لا تقطع إلا بدموع البكائين فقال له : ابك يا بني فبكيا جميعا وهكذا حكاه وهب بن منبه ومجاهد بنحوه .

وروى ابن عساكر عنه أنه قال : إن أهل الجنة لا ينامون للذة ما هم فيه من النعيم فكذا ينبغي للصديقين ألا يناموا لما في قلوبهم من نعيم المحبة . ثم قال : كم بين النعيمين وكم بينهما .

وذكروا أنه كان كثير البكاء حتى أثر البكاء في خديه من كثرة دموعه